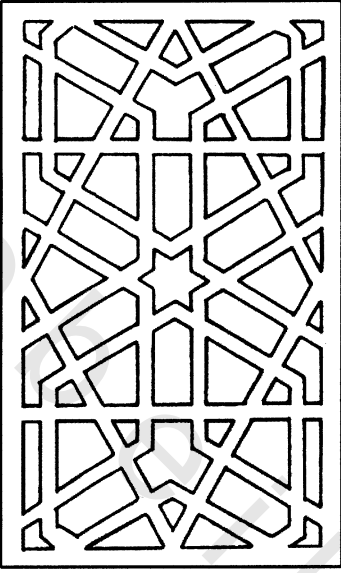




الزمرة الرابعة

خصائص التعليم الإسلامي ، وأساليبه

- - تمهيد
- استمرارية التعلم
- دراسة العلم لذاته
- الاستقلال المالي لموارد التعليم
- التفرغ التام للدرس والتدريس
- أثر مكان التعليم وزمانه ومكانه
- استحضار التصور العام للعلوم
- قرآنية التعليم، وعربيته
- آداب التعلم والتعليم
- اختيار المتعلمين أساتذتهم
- الإخلاص في التأليف
- الملاءمة ومراعاة الفروق الفردية
- التدرج الشامل في التزود العلمي
- الجمع بين الإدراك والحفظ
- توثيق الارتباط بالكتب

obeikandi.com

تهيد

يهدف هذا البحث إلى تقديم صورة معبرة عن معالم الصرح التعليمي الإسلامي ، وأركان ذلك البناء التربوي الذي تمخضت عنه المكاسب الثقافية الأصيلة، والتفوق المعرفي الذي أعطى للحضارة الإسلامية طابعها المتميز فيما لا تزال شواهده وبصماته جلية معروفة على مستوى العالم، بما لا يدع مجالاً للتشكيك به أو التهوين من شأنه .

وبالرغم من أن الخصائص والمميزات في التعليم تتفاوت عادة بين مرحلة وأخرى، وبلغة العصر " تشتق لكل مرحلة أهدافها ... " فإن ما سيأتي بيانه يصدق على التعليم الإسلامي المتواصل، للناشئة وغيرهم ، في جميع مراحله على الجملة من البداية إلى النهاية (مرحلة الإجازة) ويقتصر التفاوت على درجة تحقق ذلك، وهي تختلف في حالة التعمق عن حالة الإمام وفيما بينهما، دون غياب الجوهر الذي يعطي ذلك التعليم شخصيته الإسلامية .

ويتناول موضوع البحث الأساليب التعليمية، بالإضافة إلى المبادئ الحاكمة للتعليم ، أي الخصائص والمميزات .

وتجدر الإشارة إلى أن المناهج التي تأصلت في عصور التراث لا تزال لمساقها قائمة على نطاق ضيق في بعض البلاد حيث ظلت متمثلة في طريقة الحلقات العلمية ، وكذلك في المؤسسات التعليمية التي لم تلب عليها رياح

التغيير وما زالت تؤتي ثمارها على نحو ما، فهي تعتبر نموذجاً لما كان عليه الحال في العهود التاريخية وتوضح ما تأتي الإشارة إليه من أوصاف مقتبسة من الكتب الخاصة والعامة .

والكتب المستمدة منها مقولات هذا البحث بعضها وضع للغرض التربوي أو التعليمي، والمنشور منها قليل، وبعضها اشتملت على جوانب ذات أهمية تربوية مع أنها وضعت لترجمة الأعلام من شتى التخصصات، حيث احتوت على بيان المسيرة التعليمية التي سلكها أولئك الذين أصبحوا مادة لكتب الطبقات التي قدمت وصفا تفصيليا لما درسوه من علوم ، وما قرؤوه - في فترة التأهيل - من كتب، وطرائق الأساتذة الذين تلقوا عنهم ، وأحوال التلامذة الذين تعلموا منهم .

والغرض من البحث ليس تاريخياً، وإنما هو إبراز ما خفي من خصائص التعليم الإسلامي للإفادة منها، وقد يستدعي ذلك بعض المقارنات الوجيزة بما هو مطبق حالياً لمجرد التوضيح .

إن التقسيم الثنائي للأفراد في الأمة الإسلامية بأنهم عالم أو متعلم ، ولا خير فيما وراء ذلك - كما جاء في الخبر - جعل التعليم الإسلامي لا نهاية له إلا بمفارقة الإنسان للحياة، وكان العلماء خير من يطبق مبدأ " اعمل لآخرتك كأنك تعيش أبدا " ، فقد كانوا دائبين في تحمل العلم وتبليغه ومذاكرته حتى وهم في مرض الموت أو سياقه، وبعضهم كان في ساعات الاحتضار يحفظ أبياتا من شواهد العلم وضوابطه ^(١) .

أما بداية سن التعليم فقد عرض لها العلماء في موضوع صحة دعوى الرواية للحديث، ومال أكثرهم إلى أنها الخامسة، وبعضهم ناط ذلك بالمقدرة على عقل الأمور وإدراكها .

وبمراعاة البداية والغاية أصبح التعليم مستمرا، فكل من أراد العلم وجد الفرصة إليه، وقد كان مألوفا طلب العلم ممن جاوزوا سن الصبا والشباب، بل ممن بلغوا من الكبر عتيا، فكل إنسان وطاقاته وصبره ومصابرته. دون إخلال بأفضلية المبادرة للطلب في مستقبل العمر وريعان الشباب وسن الطفولة .

إن خصيصة الاستمرارية في التعليم الإسلامي أورثت مزايا لا تنكر، وأهمها تكرار المحاولة لمن لم يوفق في بداية أخذه العلم ، وإمكان التنقل بين

(١) معجم الأدباء ٦ / ٣٠٩ إدارة وتثمين ممتلكات الوقف (البنك الإسلامي للتنمية) ٢٢٩ .

فروعه والتقلب في فنونه بما يتلاقى مع استعداد المتعلم وحاجته، وتكوين المشاركة في أكثر من علم ، والإلمام بجميع العلوم وأكثرها .

ومن الأمور التي كانت عوناً على الاستمرارية رفع الحرج - اجتماعيا - عمن طال في طلب العلم مكثه، فليس هناك شهادات لها سنوات يعتبر من لم يحزها خلالها قد تخلف عن الركب، واستهدف للنقد والتعير بما يشبط همته ويقعد به عن بلوغ آمالها ولو بعد حين، وهو خير من آفة التعلق بالأقدمية في حيازة الشهادة واعتبارها قرينة على التفوق مع أنها قد يرافقها الاتكال على تلك الدرجات العلمية وتوقف صاحبها عن مواصلة التعلم والبحث، والاسترواح إلى ذلك وتوقف العطاء العلمي .

ومما أعان على ذلك أيضا انتفاء النفقات الباهظة لمتابعة الدراسة، فنظام الوقف - كما سيأتي - قد تكفل بنفقات التعليم، وكذلك الأمن من القلق الذي ينتاب المتعلم بتأخر أهليته للتوظيف في ظل ربط كثير من المهن ببلوغ مستوى علمي معين، فالاحتراف كان يتم مستقلا عن تحصيل العلم، فقد كان مناطه الدربة والخبرة العلمية، وفي ظل التعليم المستمر يمكن أن يحترف ثم يتعلم ، أو يجمع بينهما، أو يتعاقب التعلم والتكسب دون أن ينشب ذلك حائلا أو عائقا عن بلوغ المتعلم ما يأمله ^(١) .

(١) التعليم في عصر السيرة والراشدين، للعمرى ٢١ تعليم المتعلم للزرنوجي ١١٥ .

لقد كان استحضار النية الصالحة للتعلم أو التعليم عاملاً أساسياً فيهما، إذ يقبل الدارسون على طلب العلم، والمدرسون على بذله، ابتغاء المثوبة ودوام الأجر الموعود به في حديث " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث .. إحداها : علم ينتفع به " فكان من النادر أن يقصد المتعلم الغايات المادية الزائلة، أو المآرب الدنيوية العاجلة، ومن كانت هذه بواعثه نظر إليه على أنه نشاز ولقي التشهير والنكير، وقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليجادل به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه .

وليس معنى هذا أنهم ركزوا على الهدف الأخروي وأهملوا التأهيل للحياة العامة، بل جمعوا بين كل ما يعد الإنسان لممارسة حياته والتزود لآخرته : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

إن هذه الخصيصة حملت على التعمق في العلم ولو انقطعت في سبيل ذلك الأعمار وحالت المنية دون قطف ثمرة الجهد ، فحسب المتعلم

(١) القصص / ٧٧ .

- أو المعلم - أن يسهم في خدمة الأمة، وأن يقوم بأحد فروض الكفاية وهو العمل على بقاء العلوم قائمة بحملها ونقلها وقطف المجتمع آثارها .

لقد رأينا كيف أن الأهداف المادية للتعليم طغت في عصرنا على واجب الاعتناء بالعلم لذات العلم، كابتغاء الشهادات المؤهلة للتوظيف، أو الدرجات العلمية المؤدية للترقي، أو الألقاب العلمية التي لها وقعها بين الناس، فمثل هذه الأهداف أدت إلى الاغترار بها والركون إليها وصرفت عن الهدف الأسمى وهو تعلم العلم للعمل ونشره وأداء أمانته ^(١) .

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة ١٦ و ٨٧ الفقيه والمتفقه، للخطيب ٢ / ٨٧ المدخل لابن الحاج ٢ / ٦٣ تعليم المتعلم، للزرنوجي ٢٧ الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، لغراب ٤٦، التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، للنحلاوي ٤٢ الأساس العقائدي للتربية، لعزام (المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية ٢ / ٤٣٦) منهج التربية الإسلامية لقطب ٢ / ٢٩ .

من أهم المزايا للمؤسسة التعليمية الإسلامية استقلال مواردها المالية من خلال نظام الوقف، فقد نتج عن ذلك أكبر الأثر على المؤسسة والمعلم والمتعلم ، وحتى الموارد المقدمة على شكل وصايا أو هبات من أولي الأمر لم يصحبها نفوذ يذكر في توجيه المسيرة التعليمية، لأنها لا يبقى من آثار من بنوها إلا الرسم وتدار إدارة ذاتية ممن يتولى مشيختها .

إن الوقف نظام إسلامي - بالصورة القويمية التي طبق عليها منذ عهد النبوة - وإن كان معروفا من حيث الأصل لدى الأمم الأخرى، والطريقة التي يدار بها من خلال ناظره وشروطه المبينة في صكوك الوقف تقوم على اختيار من فيهم القوة والأمانة ، أو " الأرشد " بعبارة تلك الصكوك .

كما أن المهن العلمية التي كان يزاولها العلماء خارج إطار الولايات المنوطة ببيت المال كانت تمول أيضا من الوقف، وتحظى بالاستقلال التام الذي يضيف عليها المهابة والأمانة والاستقامة، ويجعل شؤونها من المهام العامة التي تتم تحت سمع الناس وبصرهم ، فيندر فيها الخروج عن الطريق السوي ، فإن وقع يعالج بالنقد والإصلاح بالحسبة والتقويم ^(١) .

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٣٤ من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي ١٣٢ و ١٣٤ دائرة المعارف الإسلامية المختصرة، جب وكريم ٣٠٢ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي صفحة ١٠ فما بعدها، إدارة وتتمير ممتلكات الوقف، (البنك الإسلامي للتنمية) ٢٤٢ .

٤٠ التفرغ التام للدرس والتدريس

إعطاء العلم حقه لا يكون بغير الانقطاع التام له، وقد قيل فيما يؤثر عن بعض السلف : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كله، وإذا أعطيته كلك فلست على ثقة في أن يعطيك بعضه . ومفاد هذا أن إعطاء الإنسان كل اهتماماته للعلم شرط، وليس بوجود الشرط يوجد المشروط في حين أن تحقق المشروط لا بد له من وجود الشرط وهو إعطاء الشخص كل اهتمامه للعلم .

وقد كان الانقطاع كلية للعلم سمة العصور المنزه بها سواء في أخذ العلم وحمله، أو أدائه ونقله، وساعد على ذلك توفير المورد المالي الكافي مضموماً إلى ذلك الزهد والقناعة، ونتج عن ذلك تحلي العلماء والمتعلمين بالصبر والمصابرة، والجد والمثابرة، واجتماع الخاطر وانعدام الشواغل أو الصوارف عن العلم، وظهر أثر ذلك جلياً في الكم الكبير من المؤلفات، والإتقان لمضمون المقالات وشكلها، فقد كان العلم منتهى آمالهم وملء رغبتهم .

وليس المراد بالتفرغ للعلم المفهوم المعاصر بأن لا يرتبط المتعلم بوظيفة أو مهنة، فإن هذا هو المظهر المادي للتفرغ وقد لا يوجد حقيقة بسبب الاهتمامات التي تنازعه فضلاً عن تشتت الفكري الناشئ عن افتقار التوجه للعلم ونذر النفس له وإرجاء كل ما وراءه إلى ما بعد التأهل التام^(١) .

(١) التفكير فريضة إسلامية، للعقاد ٨٥ الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي ٨٠ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي، الإمام في طريق الرواية والسماع، للقاضي عياض .

٤١ أثر مكان التعليم ، وزمانه ، ومعاييرہ

يترك مكان التعليم المناسب بصماته على المتعلم ، إذ يهيئ له الأجواء المعززة للهدف الباعث على التعليم. وقد كان مكان التعليم المسجد وما ألحق به من المدارس الموقوفة، وهي كانت تدار بمثل ما يجري في المسجد من هدوء ومهابة وروحانية، ولذلك ظلت تلك المدارس تعيش أجواء المسجد حتى في حال انفصالها وبنائها مقصودة لذاقتها، فقد كان المسجد أو المصلى الخاص بالمدرسة أهم معالمها، وكانت أشبه ما تكون بأماكن الاعتكاف وهي تعتبر ساعات المنام والطعام خلاله جزءا منه، وكانت المدارس تمثل مواقع للرباط العلمي ، ومعاقل تأهيل للجهاد الفكري ، بل كانت أحيانا تبني في الثغور كأربطة فعلية .

أما زمان التعليم فقد كان مقسما طبقا للتقسيم المثالي الرباني إلى فترات مواكبة لأوقات الصلاة، وكانت الصلاة تتخلل أزمدة التعلم بمثابة الفواصل الروحانية والتطبيق العملي لأجزاء من المقرر المدروس في مجال العبادات .

وأما مقولات العلم فقد كانت محكومة - دون قسر ولا حجر - بالمعايير الإسلامية المؤصلة بحسب ما يجب اعتقاده أو عمله، وما يجوز، وما يستحيل، وبمراعاة أصول الثبوت العقلي والشرعي، واستحضار الأحكام

التكليفية في تلك المقولات، والأحكام التي يقتضيها وضع الشارع من صحة وبطلان وسبب ومانع واشتراط .

وهذا كله يحقق الملاءمة بين العلم والعمل، والانسجام بين الفكر والسلوك ^(١) .

(١) إدارة وتثمين ممتلكات الوقف (البنك الإسلامي للتنمية ٢٣٨) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي ١٢٩ ، أصالة حضارتنا العربية، ناجي معروف ٣٥١ منهج التربية الإسلامية ، محمد قطب ١ / ٣٩ الأساس العقائدي للتربية (المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية) محفوظ عزام ٢ / ٤٣٦ .

لا يخفى أنه صار من مميزات عصرنا الحاضر التخصص والاقتصار على واحد من الفنون العلمية إلى درجة المبالغة في القطيعة بين العلوم حتى نشأت محاذير عملية معروفة من كون المتعمق في علم غريبا كل الغربة عن العلوم الأخرى، وفي العهود السابقة كانت تلك المحاذير مأمونة من خلال تكوين المتعلم تصورا عاما شاملا للعلوم، وذلك من خلال التلقي عن الأعلام من ذوي المشاركة وتعدد الاهتمامات، أو الاطلاع على الكتب المؤلفة لهذا الغرض، كالفهرست لابن النديم، وكتب أخرى بعده .

وهناك مادة ظلت مقررة إلى آخر فترة قبل تطوير الأزهر تدعى " مبادئ العلوم " وفي مخطوطات المكتبة الأزهرية عشرات المؤلفات فيها، وهي تعطي التصور الأساسي لكل علم من حيث موضوعه وتسميته واستمداده ومترلته وأهم مقولاته .

وقد ظهر هذا في مقدمات الكتب في شتى العلوم باسم " المبادئ العشرة " .

إن هذا قد أورث تكاملا بين فروع العلم من جهة، وتحديدًا لمفاهيم كل منها بعيدا عن التداخل أو الازدواج، كما أوجد عنصر التشويق للاستزادة من العلوم وتكوين المشاركة العملية بين عدد غير قليل من علماء كل عصر وأفذاذ كل مصر^(١) .

(١) أسلوب النظم وتطوير مناهج التعليم، أحمد خيرى كاظم (صحيفة المكتبة المجلد الثالث العدد الثالث) ٢٣ مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده، تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة ٥٧ .

العلوم التي كان يتلقاها الناشئة ومن بعدهم في شتى المراحل هي في طريقة تدريسها ذات طابع قرآني وميسم عربي :

فمن حيث قرآنية التعليم كانت دراسة العلوم كلها مرتبطة بشكل وثيق بخدمة كتاب الله تعالى، والاستمداد منه، والاستشهاد بآياته، بل مراعاة فهمه وأساليبه، وهذا ينسجم مع الموقع الذي تحتله العلوم الشرعية في النفوس بسبب كونها وسائل لفهم القرآن والعمل به، وهو متفق مع النشأة التاريخية للعلوم العربية، كالنحو، والصرف، والبلاغة، والكتابة ... إلخ ، حيث إنها وضعت أصلاً لضبط معرفة القرآن وبيان معانيه .

أما عربية التعليم فهي واضحة من كون العربية لغة المؤلفات في العلوم، بالرغم من تنوع أقاليم المؤلفين ومواطن دراسة تلك الكتب، وكان من أول ما يهتم به المتعلم إتقان العربية ولو لم يكن بحسب نشأته من أهلها ، بل كانت عناية الأعاجم بالعربية أكثر من أهلها، وهذا واضح من استعراض المعاجم اللغوية والكتب المؤلفة في علوم العربية .

واليوم انعكس الوضع حيث صارت العلوم تدرس في أكثر البلاد العربية بغير اللغة العربية، واستدعى ذلك الألفة بالمراجع الأجنبية والانقطاع عن التراث المدون بلغة القرآن^(١) .

(١) الأسس القرآنية للتقدم، محمد أحمد خلف الله ٣٦ أهداف المدارس الإسلامية (مجلة المسلم المعاصر العدد ٩٣) ٩١ منهج التربية الإسلامية، محمد قطب / ٢٩ .

آداب التعلم أو أخلاقياته ، وكذلك التعليم ، كانت إحدى اهتمامات العصور التي هي موضوع البحث عن الخصائص فيها. وهي أحيانا تأخذ جزءا من علم الأخلاق ، أو علم الآداب الشرعية ، وهذان العلمان اختفى الاهتمام بهما بعدما غلب عليهما في المناهج التربوية الحديثة علم النفس وعلم التربية الحديثة من خلال مقولات تتسم بالجانب التجريبي ويختفي منها الجانب الروحي الذي هو لب الأخلاق .

وأحيانا يظهر الاهتمام بالأخلاقيات بصورة مستقلة حيث تؤخذ مباشرة كمادة منفصلة، أو كمقدمات، أو أجزاء متميزة من علوم أخرى، كعلم مصطلح الحديث الذي يقوم على الرواية بالتحمل والأداء ومراعاة أصولها وشروطها وآدابها .

- وهناك كتب خاصة في آداب التعلم والتعليم، معروفة منها على سبيل المثال :

- تعليم المتعلم آداب التعلم الروحي للزرنوجي .
- تذكرة السامع والمتكلم في آداب المعلم والمتعلم لابن جماعة .
- آداب الإماء والاستملاء للسمعاني .

- الجامع لأخلاق الراوي والسامع ، للخطيب .

وليس مادة هذه الكتب نظرية للاستظهار أو الاطلاع، بل هي ذات طابع عملي تطبيقي، وتشتمل على الكثير من الوصايا والحكم والحكايات التي تروي التجارب وترسم النماذج المثلى^(١) .

(١) التربية الإسلامية وفلسفتها، للأبراشي ٢٢ التربية الأخلاقية الإسلامية، يا لجن ١٣١.

لا يخفى عدالة الطريقة التي كان يتم بها اختيار (الشيوخ) إذا قورنت بالطريقة التي تتبع في تعيين المعلمين حسب الإجراءات الآلية، إذ يصير للإنسان من الأساتذة من لا رأي له ولا إدارة في اختيارهم ، في حين كان المتعلم يختار معلمه من خلال انتقاء الحلقة التي ينضم إليها أو المدرسة التي ينتسب إليها، وأحيانا البلدة التي يرحل إليها لأجل التلقي عن عالم مشهور، وكثيرا ما كانت تجلب للمدن الرغبة في سكنها بتوطين عالم كبير فيها .

ولهذا كان من سمات تلك العصور الاستكثار من الشيوخ، ونجد هذا في التزام كتب التراجم تعداد الشيوخ لأن الأخذ عنهم كان مقصودا من التلاميذ . وكان من مقومات الشخصية العلمية آنذ تعداد مجموعة من كبار العلماء ممن اتبع للشخص التلقي عنهم . ولم تكن هيئة التدريس - كما هو الحال الآن - بمثابة شخصية اعتبارية لا يلحظ فيها الأشخاص الطبيعيون الذين تتكون منهم .

ثم إن الاختيار للمعلم كان ينشأ عنه قيام علاقات وثيقة بينه وبين تلامذته وتتحول أحيانا إلى الزمالة (الأقران) ، وكان يرتبط بذلك الاختيار أيضا التأثير السلوكي بما عليه الأساتذة والمحاكاة لهم في مناهجهم ومواقفهم بحيث تكونت منهم في عصر واحد أو عصور متعاقبة ما يمكن تسميته المجموعات العلمية الخاصة، كمجموعة ابن تيمية مثلا ^(١) .

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة ٥٩ — ٦٠ خلق المسلم، محمد الغزالي ٥ القيم الروحية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني ١٢٠.

إذا كانت المعطيات العصرية قد جعلت من الأمور المسلمة أن يستهدف من التأليف الكسب المادي إلى جانب النفع المعنوي، وأن تهيمن قضية حقوق التأليف على مسيرته بصورة تؤثر على تداول الكتب وذيوعها فإن هذا - مع قيام بعض المسوغات الشرعية له - لا تخفى آثاره السلبية على توفير أوعية العلم من كتب وبحوث ودراسات ومقالات، وقد كان ذلك مباحا للراغبين، أو بالعبارة المألوفة آنئذ: محل إجازة لكل مستحيز، ولم يكن للهدف المالي أثر يذكر إذا استثنينا حالات الإهداء للملوك والولاة، وهو كان يكلف أصحابه قريبا مما يحصلون عليه، لأن النسخ التي تهدى كانت تزخرف ويعتنى بها حتى سميت "نسخا خزائنية".

وكما اختفى الهدف المالي فإن هدف الحصول على الشهرة كان نادرا، فقد هضم المؤلفون أنفسهم وحكموا أهواءهم، وتحروا الحذر من شوائب القصد الدنيوي، حتى إن كثيرا من المؤلفات اعتبرت مجهولة المؤلف لأن أصحابها لم يذكروا أسماءهم في مقدماتها أو خواتيمها، وضاعت أغلفتها التي عليها أسماؤهم.

إن إخلاص أولئك المؤلفين ظهر أثره في خلود ذكرهم ودوام الانتفاع بمؤلفاتهم رغم تمادي العصور، فقد قيض الله لتلك الكتب من أخرجهما ونشرها بعد مئات السنين من موت أصحابها، وذلك عاجل بشرى هؤلاء العلماء، وما عند الله خير وأبقى^(١).

(١) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني / ٢٣١.

إن أمثل أحوال التخصص في علم أن يكون تلقائيا بكامل إرادة المتعلم، دون أن تسوقه إلى ذلك النظم أو تغلبه القواعد الإجرائية، أو تحول رغباته الممنوعات والقيود .

وقد كان اعتبار العلم الشرعي عماد التعليم مدعاة لفسح المجال طيلة عمر الإنسان لكي يتوجه إلى أي تخصص يريده، لأن الأهلية العامة موجودة، وهي الصعيد المشترك ، فلم يبق إلا التعمق في جانب من الجوانب التي لها علاقة بتلك الأهلية .

وهذا أوضح تطبيق لتكافؤ الفرص، وهيئة الأجواء للمشاركة في العلوم التي كانت إحدى مميزات تلك العصور .

كما أن غلبة الإطلاق (الحرية وعدم القيود) على طريقة التعليم من خلال الحلقات أو المدارس التي أتاحت مراعاة الفروق الفردية على أوسع نطاق، كما مكنت ذوي الأهلية من التفوق والشهرة والنبوغ .

وفي الوقت نفسه كان التداخل بين الدارسين من حيث أعمارهم وأعراقهم واختلافات ألسنتهم وألوانهم مدعاة للتنافس والتسامي وارتقاء الهمم في ظل التوجيه النبوي الشريف : " ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه " (١) .

(١) ديمقراطية التربية الإسلامية سعيد إسماعيل علي ٢٠٦ .

إن فكرة التدرج بوجه عام ليست غريبة عن شتى الثقافات من حيث مناهجها وطرائقها ووسائلها، ولكن المقصود هنا أن التدرج كان يطبق في جميع مقولات العلوم المراد دراستها مع التناول لها بمستويات متزايدة في القدر، حيث يدرس المتعلم من خلال كتيب صغير جميع المسائل معروضة على مستوى الأساسيات فقط، ثم يأخذ كتاباً آخر أكبر قليلاً يكون شاملاً أيضاً لجميع المسائل، وهكذا تتوالى الحلقات المتزايدة في الكبر دون إخلال بمقومات العلم، وبصورة يرسخ معها التصور العام لذلك العلم. وهذا ضروري جداً في العلوم التي لا يستفيد منها المتعلم إلا بمعرفة جميع مسائلها، كالنحو مثلاً. فإن دراسته بتجزئة مقولاته وتوزيعها على سنوات مراحل دراسية أدت إلى النفور منه، وعدم الحصول على طائل، لأنه لا يقدم على الجزء الثاني إلا بعد أن ينسى الأول وهكذا.

وقد ظهرت هذه الخصيصة في المؤلفات في معظم العلوم، إذ في كل منها حلقات شاملة متصاعدة في المستوى. وعلى سبيل المثال: لابن قدامة في الفقه سلسلة بدأها بكتاب العمدة، ثم المقنع، ثم الكافي، ثم شرح مختصر الخرقى (المغني). ولابن هشام في النحو: الأزهرية، ثم قطر النداء، ثم شذور الذهب، ثم التوضيح شرح الألفية. كما أن له في فلسفة النحو قواعد الإعراب، ثم مغني اللبيب. ونحو هذا نجده في أكثر العلوم^(١).

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ١ / ١٢٥ تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة ٤٨ مقدمة ابن خلدون ٥٠٢ الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، للقباسي ٣٠٣ آداب المعلمين، لسحنون ١٠٢ مقدمة ابن خلدون ٥٠٢.

لئن لم تكن هذه الخصلة من المميزات الخاصة بالتعليم الإسلامي، فإنها ظهرت بشكل جلي فيه، لما تحققه من التكامل بين إدراك مقولات العلوم (فهمها) وبين استظهارها (حفظها) وكان الغرض من الحفظ تسهيل العلم والتطبيق، وليس التأهيل للامتحانات التي تشكل في عصرنا معاناة للتلامذة وإشقاقا عليهم.

ولقد أصبح من المعروف في التعليم الإسلامي الاهتمام الأكيد لدرجة التلازم بين هذين العنصرين الأساسيين لحمل العمل ونقله، وبالرغم من الحملة الجائرة على الحفظ (ربما بسبب المبالغة فيه لدرجة الاقتصار عليه في بعض الأوساط، أو لتسويغ التقاعس الملحوظ عن الحفظ في هذه العصور) فإن الحفظ كان له شأن كبير من خلال حفظ نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، بل أصبح الحفظ مع الوعي (الإدراك والفهم) شعارا على التفوق والبراعة، فمن الأمثلة العلمية: "من حفظ حجة على من لم يحفظ" ومن شعر الحكمة:

إذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للعلم لا ينفع

ومرتبة (الحافظ) في طبقات المحدثين هي مما يضيفي على القلة النادرة.

ولتسهيل الحفظ تم استخدام النظم لجمع مقولات العلم في كمية محدودة وبأسلوب الشعر الميسور حفظه (الرجز) وما أكثر المنظومات والألفيات

في كل علم وفن، وبعضها تناول الآداب الشرعية والأخلاق وآداب التعلم والتعليم .

وقد استدعى الاهتمام بالحفظ وسائل وطرقا مساعدة له ، فهناك الضوابط العلمية المصوغة في أبيات أو عبارات لحفظ ما لا بد من حفظه، كما أن هناك المتون وهي خلاصات محررة للعلوم بقصد استحفاظها وجمعها في الصدور .

وهذه المتون كانت مستهدفة بالاختصار المتتابع وبالنظم ، كما أنها حظيت بالشروح والتعليق عليها ^(١) .

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٤٣ تقييد العلم، للخطيب ٣٨ .

الكتاب هو المعلم الصامت ، وهو منطلق التعليم، بل هو البداية والنهاية وبينهما المعلم ، فإذا لم يتوافر المعلم أو غاب كان البديل هو الكتاب .

وقد قامت إلى جانب الكتب المؤلفة بصورة طليقة مجموعة من الكتب موجهة أصلاً للمتعلمين، أي هي كتب مدرسية أو دراسية بلغة العصر، والفروق جد محدودة بين هذين النوعين في السابق خلافاً لما هو عليه الحال اليوم فهي في صغر حجم الكتاب ، وفي طي بعض التفاصيل . على أن هذا الاجتزاء عن التفاصيل جاءت الشروح والحواشي والتقارير لمعالجته . وبهذا الوضع لم يخرج الكتاب الدراسي من صميم المكتبة العلمية ، وظل محل تقدير المتعلم بعد الفراغ من دراسته إياه، أما اليوم فالمتعلم لا يعبأ بالكتاب المدرسي وكأنه في نظره مسودات أو ألواح يكتب فيها ثم تمسح . وربما لا يتحدد للطلاب في عصرنا الارتباط بكتب أخرى ضمن المجموعة الطليقة (أو المطولات) فتقطع الجذور بينه وبين أوعية العلم وتحدث الفجوة وتفقد الأصالة، فلا طارف ولا تليد !

يضاف إلى هذا تلك المكانة الرفيعة التي كانت للمكتبات بالاهتمام بها واستقلالها من خلال نظام الوقف، وتعميم الانتفاع بها باستضافة المساجد لها .

وقد نشأت لخدمة الكتب صناعات وفنون معروفة كالخط والتجليد
والزخرفة والتذهيب وصناعة الورق العربي، وشواهد ذلك لا تزال قائمة
في المكتبات داخل العالم الإسلامي وخارجه، وكل ذلك يكشف عن
خصيصة أساسية في التعليم الإسلامي هي الالتصاق بالكتاب ^(١).



(١) أصالة حضارتنا العربية، ناجي معروف ٤٤٠ و ٤٧٢، خزائن الكتب القديمة في العراق، ناجي
معروف ٢٥٩ شمس العرب تشرق على الغرب، هونكه ٣٩٠.

أهم المراجع

- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلام والمتعلم، لابن جماعة، طبع حيدر آباد ، الهند ١٣٥٣ هـ .
- تعليم المتعلم طريق التعليم ، للزرنوجي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
- مقدمة ابن خلدون .
- آداب المعلمين، سحنون، دار الكتب الشرقية ، تونس ١٩٧٢ .
- معالم القرية في أحكام الحسبة، لابن الأخوة .
- تقييد العلم ، للخطيب البغدادي .
- معيد النعم ومبيد النقم، للسبكي .
- الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي .
- الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسي، دار المعارف ١٩٦٧ .
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي .
- الإمام في طرق الرواية والسماع، للقاضي عياض، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة .
- التربية الإسلامية وفلاسفتها، محمد عطية الأبراشي ، مكتبة عيسى الحلبي ١٩٦٩ .
- التربية الأخلاقية الإسلامية، مقداد يالجن، مكتبة الخانجي ١٩٧٧ .

- الأسس القرآنية للتقدم، محمد أحمد خلف الله، سلسلة كتاب الأهالي ، القاهرة ١٩٨٤ .
- من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، بيروت ١٩٧٧ .
- التربية عبر التاريخ، عبد الله عبد الدائم .
- تاريخ التعليم عند المسلمين، منير الدين أحمد .
- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، الطبعة الثانية بالقاهرة
- ديمقراطية التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل علي، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٢ .
- القيم الروحية في الإسلام ، أحمد فؤاد الأهواني ، سلسلة دراسات في الإسلام ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٦٢ .
- خلق المسلم، محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٧٤ .
- المذاهب الأخلاقية في الإسلام عبد الحي محمد قابيل ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٤ .
- أصالة حضارتنا العربية، ناجي معروف، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٥ .
- خزائن الكتب القديمة في العراق، كوركيس عواد .
- شمس العرب تشرق على الغرب، سيجفون هونكه، المكتب التجاري ، بيروت ١٩٦٤ .
- إدارة وتثمين ممتلكات الوقف ، (ندوة البنك الإسلامي للتنمية ١٩٨٤) .
- التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة .

